**المحاضرة الرابعة**

**مفهوم الشعر عند النقاد المشارقة والمغاربة**

**تمهيد:**

الشعر من أقدم الفنون الأدبية التي عرفها الإنسان، وأكثرها قدرة على التعبير عن تجاربه وأحاسيسه ومشاعره. وهو علم وضرب من ضروب الكلام الموزون، تتعاطاه طائفة متميزة من الناس ، عرفوا بالشعراء.

ولقد اهتم العرب بهذا الضرب من الكلام، فحفظوه وتناقلوه ورووه جيلاً بعد جيل. وقاموا بتدوينه، وحاولوا أن يضعوا له حدّاً وتعريفاً يميزه عن غيره من أصناف الكلام، لما يفيض به من حِكَم وأمثال وفوائد، ولقدرته على التصوير وترجمة المشاعر والأحاسيس.

وسنحاول –بعد التعرف على مفهوم الشعر لغة- تقصي مفهوم الشعر عند النقاد العرب القدماء، لنتبين تطوره والتغيرات التي طرأت عليه، وما أضافه كل ناقد على الذي سبقه.

أولا: مفهـوم الشعر فـي اللغة:
يقول ابن منظور في لسان العرب: ''وليت شعري، أي ليت علمي أو ليتني علمت، وليت شعري من ذلك أي: ليتني شعرت.

وفي الحديث: ليت شعري ما صنع فلان، أي ليت علمي حاضر أو محيط بما صنع. وفي التنزيل: ''وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون''، أي: وما يدريكم. وأشعرته فشعر أي: أدريته فدرى، والشعر : منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية، وإن كان كل علم شعراً..''.

**1- مفهوم الشعر عند الجاحظ (ت255ه):**
يتبين مفهوم الجاحظ للشعر، من حادثة اعتراضه على استحسان أبي عمرو الشيباني لبيتين من الشعر، وهما:

لا تحسبن الموت موت البلى\*\*\*فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا\*\*\*أفظع من ذاك لذل السؤال

يقول الجاحظ: ''وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني، وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين في المسجد يوم الجمعة، أن كلّف رجلاً حتى أحضر دواة وقرطاساً حتى كتبهما له. وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً. ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أبداً''. ويقول: ''وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير''.

ففي اعتقاد الجاحظ أن أبا عمرو الشيباني مخطئ في حكمه على البيتين، ومرد خطئه هو انطلاقه في حكمه من عنصر المعنى، لأن المعول في الشعر إنما يقع على ''إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك''، إضافة إلى أن المعنى الحكيم وحده ليس شعراً، لأن المعاني الحكيمة والمواعظ الدالة حظٌّ متاح للجميع، أيّاً كانت أعراقهم وبلدانهم، وإنما الشاعر صانع ونسّاج ومصوّر.

2-ابن قتيبة (ت276ه):
ينطلق ابن قتيبة في نظرته للشعر من ذوق خاص، وذلك بتحليله إلى عناصره، وحصر حالات كل عنصر وأقسامه وأضربه.

والشعر -حسبه- مصدر رئيسي من مصادر المعرفة الموثوقة. يقول ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء: ''وكان حق هذا الكتاب أن أودعه الأخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خطره... وعما أودعته العرب من الأخبار النافعة، والأنساب الصحاح، والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة، والعلوم في الخيل، والنجوم وأنوائها والاهتداء بها، والرياح وما كان منها مبشّراً أو جائلاً، والبروق وما كان منها خُلّباً أو صادقاً، والسحاب وما كان منها جهاماً أو ماطراً، وعما يبعث منه البخيل على السماح، والجبان على اللقاء، والدنـيّ على السمو...''.

وهو من حيث عناصره أربعة أضرب هي:
1 - ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعا\*\*\*إن الذي تحذرين قد وقعا

2 - ضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هنا فائدة في المعنى، كقول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة\*\*\*ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهاري رحالنا\*\*\*ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الحديث بيننا\*\*\*وسالت بأعناق المطي الأباطح

3- ضرب منه جاد معناه، وقصرت ألفاظه عنه، كقول لبيد بن ربيعة:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه\*\*\*والمرء يصلحه الجليس الصالح

4 - وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني\*\*\*شاوٍ مشلٌّ شلولٌ شلشلٌ شولُ

3- **ابن طباطبا العلوي (ت 322 هـ):**

يعرّف ابن طباطبا الشعر فيقول: ''الشعر أسعدك الله كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خصّ به من النظم الذي إن عُدِل عن جهته مجّته الأسماع، وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود، فمن صحّ طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه''.

وللشعر أدوات هي: المعرفة الواسعة بعلوم العرب من نحو وإعراب وتاريخ وأنساب ومذاهبهم ورواية فنون الآداب والتصرف في معانيها ومناهجها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها.

كما يتطلب بناء خاصا ومراجعة قبل إعلانه للمتلقين، وفي ذلك قال ابن طباطبا: ''فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخّض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه''. وأعقب قائلا: ''ثمّ يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ونتجته فكرته، يستقصي انتقاده، ويرمّ ما وَهَى منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية. وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو نقص بعضه، وطلب لمعناه قافية تشلكله، ويكون كالنساج الحاذق الذي يفوّق وشيه بأحسن التفوق ويسَدّيه وينيره ولا يهلهل شيئا منه فيشينه...''.

4- قدامة بن جعفر (ت337ه):
أراد قدامة بن جعفر أن يكون مؤلفه (نقد الشعر) مختلفا عن سابقيه كما يقول: ''فأما علم جيد الشعر من رديئه فإن الناس يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلم فقليلاً ما يصيبون. ولما وجدت الأمر على ذلك وتبينت أن الكلام في هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخرى، وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه، رأيت أن أتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع''.

وأول خطوة لتمييز جيد الشعر من رديئه هي تحديد ماهيته، وفي ذلك قال: ''الشعر كلام موزون مقفى، يدل على معنى''. ثم أضاف مفصلا في كل مصطلح مما ذكر: ''فقولنا قول دال على أصل الجنس الذي هو بمنزلة الجنس للشعر وقولنا موزون يفصله مما ليس بموزون إذ كان من القول موزون وغير موزون وقولنا مقفى فصل بين ما له من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع وقولنا يدل على معنى يفصل ما جرى من القول على قافية وزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى''.

لقد أراد قدامة أن يقدم مفهوما عميقا للشعر، ولكنه أغفل عناصره الجوهرية كالخيال والعاطفة. يقول الدكتور إحسان عباس: ''لقد كان هذا التعريف مورطاً لقدامة على الصعيد المنطقي، لأن القافية لا تعدو أن تكون لفظة فهي جزء من «القول» أو ركن «اللفظ»، أي هي داخلة في «اللفظ» وفي «المعنى» وفي «الوزن»، فإفرادها خروج على المنطق، ولذا فإن قدامة وقع في حيرة من أمرها، حين أراد أن يستكشف ائتلافها مع هذه العناصر، لأنها ليست قائمة بذاتها، ثم وجد أنها يمكن أن تقع مؤتلفة مع المعنى. ومن ثم يتجه الحديث في الشعر إلى عناصره البسيطة (اللفظ – المعنى – الوزن – القافية). ثم يتجه إلى المركبات ( اللفظ والمعنى – اللفظ والوزن- المعنى والوزن – المعنى والقافية)''.

5-القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت392ه):
أقرّ القاضي الجرجاني، من خلال الدفاع عن تجاوزات المتنبي، مفهوما جديدا للشعر بما أصدره من أحكام، وما عالجه من قضايا متأثرا في كثير منها بالآمدي. وأولها (عمود الشعر) في قوله: ''وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن: بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة، إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض''.

**6- ابن رشيق المسيلي القيرواني (ت456ه):**

الشعر –في نظر ابن رشيق- يتقوّم بعد النية من أربعة أشياء، وهي اللفظ والمعنى والوزن والقافية. وهو بما ذهب إليه من حديث عن القصد والنية كالجاحظ (ت255ه) قبله، إذ سبق إلى أنّ بعض أقاويل الناس ورسائلهم وخطبهم تحتمل الوزن لكنّها ليست كذلك لانتفاء النية عنها، حيث قدّم ابن رشيق عبارة النية كركن مساهم في تشكيل بنية الشعر وتمييزه عن باقي الكلام، كأشياء اتزنت من القرآن ومن كلام النبي صلّى الله عليه وسلّم وغير ذلك، وليست شعرا.

ثم أضاف أن النية تحتاج الموهبة، لأنها القوّة التي تمكّن الشاعر من رؤية الأمور والإحساس بها، فيشعر بما لا يشعر به غيره، فالشاعر كما يقول ابن رشيق إذا لم يكن لديه ''توليد معنى ولا اختراعه أو استطراف لفظ أو ابتداع أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني أو نقص ممّا أطاله سواه من الألفاظ أو صرف معنى إلى وجه عن وجه كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له إلّا فضل الوزن، وليس بفضل مع التقصير''.

 فابن رشيق - إذن - لم يكن بمعزل عن التأثر بالمفهوم العربي الخالص للشعر والذي يعتبر الشعر كلاما جميلا يتّصف بمقوّمات ثابتة هي الوزن والقافية، ويقوم على اللفظ المنتقى. ويحتاج لدعائم هي الثقافة الواسعة والإلمام بعلوم العرب. يقول ابن رشيق: ''الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل أهول ما يكون على العالم، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته...''، والمتصف به ''مأخوذ بكلّ علم مطلوب بكلّ مكرمة، لاتساع الشعر واحتماله كلّما حمّل من نحو ولغة وفقه وخبر وحساب وفريضة...'''

**7- حازم القرطاجني (ت 684ه):**

يرى القرطاجني أن الشعر ''كلام مخيل موزون مختص في لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك. والتئامه من مقدمات مخيلة، صادقة كانت أو كاذبة، لا يشترط فيها - بما هي شعر- غير التخييل''. وتحقيق تلك الغاية مرتبط ''بما يتضمن (أي الشعر) من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام أو قوة صدقه أو شهرته، أو بمجموع ذلك'''.

 ويضعنا القرطاجني أمام عمل قوّتين مهمتين هما: المحاكاة والتخييل، حيث حلّل وفقهما العملية الإبداعية من جانب الإبداع ومن جانب التلقي، اقتداء بالفلاسفة الذين تعقبوا القول الشعري باعتباره عملا مخيلا قائما على فنّ المحاكاة، فالشعر شعر بما فيه من تعابير مجازية تتجاوز الحقيقة وإن كانت لا تتعداها، وهذا ما عبّر عنه القرطاجني بالمحاكاة التخييلة، قاصدا بالعناصر التخييلية التقنيات الإبداعية التي تقدّم المحاكاة تقديما شعريّا يمكّن المتلقي من النص، ويجذبه إليه، فللنفوس - كما ذكر-: ''تحرّك شديد للمحاكيات المستغربة، لأنّ النفس إذا خيّل لها في الشيء ما لم يكن معهودا من أمر معجب في مثله وجدت من استغراب ما خيّل لها ممّا لم تعهده في الشيء ما يجده المستطرف لرؤية ما لم يكن أبصره قبل وقوع ما لم يعهده من نفسه موقعا ليس أكثر من المعتاد المعهود'''.

وأساس القوة التي يكتسب بها الشاعر تسميته وصفته هي الموهبة والطبع، قال القرطاجني: ''النظم صناعة آلتها الطبع. والطبع هو استكمال النفس في فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها، فإذا أحاطت بذلك علما قويت على صوغ الكلام عملا''.

**خلاصة:**

عموما، شغل النقاد على مرّ العصور، وعلى اختلاف بيئاتهم بالبحث في ماهية الشعر وفق وجهات نظر خاصة، تعكس التكوين الشخصي والموقف الأدبي لكل منهم.

**المصــادر والمراجـع:**

1- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، ط1، 2005.
2 - عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط3، 1986.

3 - إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، الأردن، عمان، ط 1، 1993.
4- الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، ط 1، 1996.

5- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط7، 1418ه، 1998م.
6 - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الآثار للنشر، ط 1، 2010.
7- ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد، عيار الشعر، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، مراجعة نعيم زرزور، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م، 1426ه.

8- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجة، دار الكتب العلمية، ط1، 1995.

9- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، محمود محمد شاكر الكتبي، الناشر دار المدني، القاهرة، جدة.

10- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار الفكر العربي، ط1، 1998.

11- ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد محمد محي الدين، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1971.
12- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981.

 13- قصي الحسين: النقد الأدبي عند العرب و اليونان معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان ط1، 2003.

14- مصطفى عبد الرحمان إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، القاهرة، مصر، 1419ه، 1998م.

15- محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، 1996.